الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

البلبل العائد إلى الروض — بيني وبين أصدقائي

البلبل العائد الى الروضه

كنت أحب أن أجزى الأستاذ البشبيشي ثناء بثناء ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ولكن غراى بالشاغبة غيّر مقام الخطاب ، فأنا سألقاه باللام لا بالثناء ، وهو المسئول عما سيقع في كلامي من قسوة وعنف ، لأنه حدثنا أنه مُقْبِلٌ على أمر عظيم هو العودة إلى الروض ، وقد كادت كلمته بالرسالة تشهد بأنه يعاني مشقة أليمة في رياضة جناحيه على النهوض ، بعد طول القرار بأرض الهجُود ، إن جاز الوهم بأن الغفوة تجوز على قلب ذلك الصديق

وما لي لا أقول الحق فأصرح بأني أخاف على الأستاذ البشبيشي عواقب العودة إلى روض الأدب والبيان ؟

أنا أخاف على هذا الصديق أشد الخوف ، لأن ماضيه القريب دلني على أنه تعرّض لغضب الأدب مرتين ، ولو شئت لقلت إنه تعرض لغضب الله مرات ... ولكن كيف ؟

نسي الأستاذ البشبيشي أو تناسى أن الله يسوق للمكاره إلى النوابغ من وقت إلى وقت ليفتح عيونهم وقلوبهم على ما في الوجود من أنوار وظلمات ، ونسي أو تناسى أن الله يطالب أولئك النوابغ بالجد على تلك المكاره ، لأنها في الواقع نِعم سوابغ

فما الذي صنع ذلك الصديق وقد تفضل الله بامتحانه مرة ومرتين ومرات ليشرع القلم في وصف ما يعتلج في ضمير الوجود من آراء وأهواء وحقائق وأباطيل ؟

أوذيَ البشبيشي بالظلم والغدر والعقوق ، فهل استفاد قلمه من ذلك الإيذاء ؟

أيكون آثر العفو عن ظالميه ؟ إن كان ذلك فما الذي صدر عن قلمه في ذلك الصفح الجميل ؟

المهمّ هو أن ينتفع الكاتب من جميع الظروف ، فيكون لقلمه حنين ورنين وصرير وزئير ، وَفقاً لاختلاف الأحوال من قلق وهدوء ، وبؤس ونعيم ، فإن ضيّع هذه الفرص السوانح وترك عواطفه تخمد وتبيد فهو غير أهل للعودة إلى الروض ، ونحن على صده قادرون ، فليس منا مَن يضيّع فرصة الانتفاع بعواسم القلوب في القبض والبسط واليأس والرجاء

إن روض الأدب ليس حديقة مصقولة الحواشي كالحدائق التي تقام في قصور الأمراء والوزراء ، فتلك حدائق لا تتغنّى فيها البلابل إلا وهي محبوسة في أقفاص ، أو ما يشبه الأقفاص من المغاني المسقوفة بأسلاك الحديد

روض الأدب ليس من تلك الحدائق حتى يقول الأستاذ البشبيشي إنه قادم للغناء وفي يده وَتَرٌ حنّان هو قلمه البليغ

هيهات ، هيهات ، وإنما روض الأدب جنة وحشية تشبه الجنة التي اعترك فيها الخير والشر والهدى والضلال لعهد آدم وحواء

في روض الأدب أزهار ورياحين ، وفيه أيضاً أشواك وحيات وشياطين

هو روضٌ وحشي تجاورَ فيه الكِناس والعرين ، واقترب فيه عش الطائر من وكر الثعبان ، وأنتَ واجدٌ بذلك الروض ما شئت من صنوف السم والترياق ، ففيه أنهار من الشهد وبحار من الصاب ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أفانين الود والحقد والصدق والبهتان

في ذلك الروض الوحشي لا يشرد البلبل إلا وهو مطمئن إلى أنه تفرد بالقدرة على السباحة في لجج الهواء ... وفي ذلك الروض يزأر الأسد وهو واثق بأنه السيد المطلق ، وفيه ينام الظبي حين يعرف مسالك الأمان من كيد أولئك « السكان »

كل شيء حيّ في ذلك الروض حتى هوامد الأعشاب وصوامت الغدران . فما الذي أعددت ، أيها البلبل ، لزيارة هذا الروض ؟

ما أشد خوفي عليك ، يا صديقي ، فأنت فيما يظهر لم تسمع بأفاعي الرياض

البلبل في ذلك الروض يغني بالنهار ، ويسهر خائفاً بالليل ، لأنه يعرف أن في ذلك الروض خلائق مؤذية تتسلق الأشجار في الظلمات لتعصر رقاب البلابل ثم تبتلعها برفق ؛ والموت هو الموت ولو جاء في أعقاب النشوة بكؤوس الرحيق

وأنا جربت الحياة في روض الأدب ، وعرفت من أهوال ذلك الروض ما لا تعرف . وهل تعرف أني كنت في روض

الأدب بُلبلاً وأفنوانا ورئبالاً ؟ هل تعرف أني غَنَّيتُ ولَدَغتُ وهَصَرتُ ؟ هل تعرف أني قابلتُ خلائق ذلك الروض بأسلحة مختلفات : منها الصوت الرخيم ، والناب المسموم ، والمِخْلَبُ الفاتك ؟

وهل ألام على ما صنعت وأنا أعيش في مَصْبعة سميتُ تفاؤلاً بالروض ؟

وتقول : إنني اجتذبتك إلى هذا الروض ؛ وما قلت إلا الحق فقد كان قلمي ولن يزال مسموع الصوت ، مستجاب الدعاء ، ولكن كيف اجتذبتك ؟ ما صنعت ذلك ترفقاً بك ولا عطفاً عليك ، وإنما أردت أن تكثر النفوس في تلك المسبعة الفيحاء ، ليذهب عني بروحك المؤنس بعض ما أقاسي من مُضجرات الاستيحاش ، إن صح لمثلي أن يتهيب العزلة والانفراد في روض السباع الضاريات

أما بعد ، فهذا روض الأدب ، وهذا بلبل يعود بعد طول الغياب ، ليغرِّد فوق أفنان « الرسالة » الشَّجراء

والحق أنه لن يرى لأول وهلة أن روض الأدب من الغابات الوحشية ، وكيف وفي ذلك الروض كتاب وشعراء وعلماء ؟ ولكن العبرة بالخواتيم ، والخواتيم في أيدي أناس غير أولئك ، ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وهم الذين يحكمون على الأدب وهو منهم بَراء

لو فهم كل قارئ ما تريد أن تقول ، لكان من السهل أن يألف الأسد والغزال ، والبلبل والثعبان

ولو فهم كل قارئ أن للكاتب حقاً في أن يؤدي رسالته بالأسلوب الذي يختار لعرف قومٌ أنْ لا موجب للحيرة في أمرى وقد طويتُ محاسني ونشرتُ عيوبي ، لأسلم من آصار التكبير والازدهاء ، ولأجعل الرأي في سعادتي وشقاوتي لمن تفرد بالعزة والجبروت ، له الحمد وعليه الثناء

هذا روض الأدب ، وهذا بلبل يعود

أهلاً وسهلاً ومرحباً ! !

ولكن يجب أن يعترف الأستاذ البشبيشي بأننا خصصناه بالأهل والسهل والمرحب ، وهي ألفاظ لم تسمع بها في هذا الروض فما كان إلا مسارب ظلال ومدارج ذئاب

الأدب ؟ الأدب ؟

ماذا جنينا من أيامه ولياليه وقد سبقنا المتجرون بالمآتم والدسائس والأراجيف ؟

إن الجاسوس يملك من الثروة أضعاف ما يملك الأديب ، وأهون الحظوظ في الدنيا هي حظوظ الأديب ؛ فأين من يتوجع لبلائنا بالدنيا والناس ؟

آمنت بالله ، وتُبتُ إلى الله ؛ فما عرفت نعمةً أعظم من نعمة الخلوة إلى القلم في لحظات السيطرة الروحية على زمام الوجود

إلى القلم ، إلى الروض ، إلى مُشترَك المدى والضلال ، إلى حيث تصافح بالفكر والروح شياطين النفوس وملائكة القلوب !

ومن الله الذي أقسم بالقلم وما يَسطُرون نسأل الأمان من إخوان الزمان

بيني وبين أصدقائي

وأصدقائي في هذا الحديث هم قراء « الرسالة » الذين تطيب لهم مراسلتي من حين إلى حين ، وهم خير الأصدقاء ، لأن الصلات الروحية أعظم وأنفس من جميع الصلات ؛ ومع اعترافي بهذه الحقيقة التي تؤنس روحي فأنا لا أؤدي حقوق هذه الصداقة إلا في أندر الأحايين ، لأن صفحات « الرسالة » تضيق عن تسجيل ما يدور بيني وبينهم من فنون الأحاديث ؛ فماذا أريد أن أقول لهم في هذه الكلمات ؟

١ — أريد أن أطمئن الأديب « البيسي » الذي نقل إليَّ عواطف بعض إخوانه في الإسكندرية عما كتبته في تأنيب الشاب المقيم بإحدى قرى المنوفية ، فقد عدّوا كلامي تثبيطاً لعزائم الشبان ، وتخوفوا عواقبه في قتل مواهب ذلك الأديب الناشئ .

وأجيب بأن ذلك الشاب لم ينتحر — كما توقعت — وإنما أجاب جواباً يشهد بأنه خُلق للحياة لا للموت ، وذلك ما كنت أبغي ، فما يسرني أن تكثر الأرقام ، وإنما يسرني أن تكثر الأعلام ، وأديبٌ واحدٌ متمكن أنفع للأمة من ألوف الأدباء الموسومين بالجهل المصقول ، وأعيذ الأديب « البسوق » أن يكون من هؤلاء

٢ — وأريد أن أقول للأديب « . . . . » إن ثناءه على ما أكتب فى النقد الأدبى لا يغريني بالسير فى ذلك الطريق إلى نهاية الشوط ، لأن الجمهور يغيب عنه الفرق بين النقد والتجريح ، وهو يتوهم أن لنا غاية فى تعقب الآثار الأدبية بالتزييف والتصحيح . . . يضاف إلى ذلك أنى أكره أشياء من بعض الناس ، ففيهم من يعيش بوجهين ، فيكتب إلىّ مشجعاً ، ويكتب إلى من أنقدهم متوجعاً ؛ كالذى صنع فلان حين رجا أن يكون كتابه خاصًّا لا يصل إلى أسماع القراء ! فهل تراهم سمعوا منه شيئاً ؟ ! وهل عرفوا أنه يقيم فى بلد يقيم فيه شاعر كبير اسمه أحمد . وهو غير الشاعر أحمد الكاشف ؟

٣ — وأريد أن أقول لصاحب « جريدة مصر العليا » إنى راض عن التسمية الطريفة لمصر الشمالية ومصر الجنوبية ، وهو يعرف ما أعنى

٤ — ثم أنظر فى جريدة « الأحوال » البغدادية فأجد صورة « شارع فيصل » بجانب الكرخ ، وتحت الصورة كلمات موجهة إلىّ برفق ولطف ، كلمات دبجها أديب كريم عزّ عليه أن أشكو زمانى فهو يقول :

« أنت أكبر من الزمان ، ما دام لك إخوان أوفياء »

وعندئذ أتذكر أن لى فى العراق ذخيرة روحية ، ثم أتذكر تمثال فيصل ، ثم من جلست فى رحاب ذلك التمثال وصدرى يفيض بالكروب فى ليلة عتاب :

يا روعةَ البدر فى سَماهُ ... وفتنةَ الزهر فى الغصونِ
تناسَ ما شئتَ سوف تحبو ... حرارة الدمع فى الشؤون
وسوف تبلى على الليالى ... غرائب السحر فى العيون
أستغفر الحبَّ سوف يبقى ... على صروف الأسى حنينى

وتذكرت الخطابات التى تلقيتها من الكرخ ، وأجبت عنها بالصمت ، فراراً من عواقب الافتضاح ، وهل كنت إلا طيفاً زار فى السحر بساتين الكرخ وبغداد ؟!

٥ — وهذا خطاب من الأستاذ جاسم الرجب يشرح خلافاً بينه وبين الأستاذ شاكر الجودى حول مقال نُشر فى « الرسالة » بدون إمضاء ، ثم فقدته بصُنف ، ويرى السيد جاسم أن الناقد هو الكاتب ، وأجيب بأنى نسيت ظروف ذلك المقال !

أما ثورة السيد جاسم على فلم « فتاة مغمردة » ودعواه أنه ينفض من المجتمع المصرى فهو كلام لا أوافقه عليه ، فذلك الفلم من الأفلام الجيدة ، وقد شاهدته فأبكانى ، وهو يمثل صورة من أزمات النفوس تقع فى مصر كل يوم ، وقد تقع أيضاً فى العراق ، لو التفت هذا الصديق إلى ما يمر بالنفوس من مكاره وخطوب .

٦ — وذاك خطاب من أخ صادق يقول فيه : « هل يذكر الدكتور زكى مبارك أنه ألقى فى البريد المصرى تذكرة واحدة لإخوانه فى بغداد وما عرف فيهم غير الصدق والوفاء ؟ »

وأجيب بأن العراق شغلنى عن العراقيين ، ولو جُمع ما كتبته فى الجرائد المصرية عن العراق لكان مادة تكفى لتأليف ألف خطاب ، فهل يتقبل هذا الاعتذار الطريف ؟

وأنتهز هذه الفرصة فأوجه العتاب إلى رقابة البريد فى مصر ، فهى تفتح جميع الخطابات التى ترد إلىّ من العراق ، فماذا ينتظر الرقباء ؟ هل يتوهمون أن من المحتمل أن يكون فى تلك الخطابات ما يستوجب السؤال والجواب ؟

وماذا يصنع رجل مثلى أكثر من الذى صنع ليقنع قومه بأنه لا يعرف غير الهيام بخلق المودّات لمصر فى أقطار الشرق ؟ وكيف كانت تصير الصلات بين مصر والعراق لو صفح قلمى عمن حاولوا تكدير تلك الصلات ؟

الرقباء ينفذون خطة يقضى بها الواجب ، ولكن من حقنا على الدولة أن نذكّرها بأننا نعرف من المسئولية مثل الذى تعرف ، فنحن جنودها الأمناء ، وما يجوز لها أن تؤذينا ولو بالتلميح ، إلا أن يقال إن الرقباء لا يعرفون اسم زكى مبارك وهو عُذرٌ مقبول !

٧ — وأريد أن أشكر للأديب الذى يكتب إلىّ من « فارسكور » حماسته البالغة فى ملاحقتى بالنقد العنيف ، ثقةً بأن خفاء اسمه ينجيه من بطش قلمى ! ثم أرجوه أن يتذكر أن عنوانى هو « مصر الجديدة » فلا موجب لهيام خطاباته بين إدارة الرسالة ووزارة المعارف ، فقد يغرّمها ذلك الهيام الضياع

أما التوجيه الذى ينتظره منى فهو سهل ؛ فقد دلت رسائله على تباشير من الفهم الصحيح ، ويكفى أن يثابر على المطالعة الجدية بدون انقطاع ، وليقصر مطالعاته مؤقتاً على أطايب